

فعالية اللغة العربية

للمستاذ عبد الفاسي

الامة وعنوان وجودها ، وأن كل أمة لا يمكن أن تتحقق من ذاتيتها الا في لسانها القومي المعبر عن تفكيرها التلقائي ، ولقد صدق «جوستاف لوبون» حينما قال : (إذا استعبدت أمة ففي يدها مفتاح سجنها ما احتفظت بلفتها) . واننى لازجو أن يتحد رجالنا على خدمة اللغة العربية وتمهيد الطرق لنموها وتطورها ، حتى يضمّنوا للمغرب وللإسلام فيه ، حياة عربية موحدة ، تستكمل ما بدأه أجدادنا من غرس نابع للعروبة في هذه الأرض الحبيبة ، وبذلك تكمل وحدتنا اللغوية ، التي هي ضرورة لنا ولوحدة العالم العربي كله .

مشاكل العربية في المغرب

وطريقة علاجها

قلت ان مشكلة العربية في بلادنا مزمنة ، واعنى بذلك ان التعريب الذى بدأه أجدادنا لم يتم فى هذا الوطن ، فما يزال قسم من جبال المغرب لا يتكلم العربية ولا يتقن الكلام بها ، وهذا على العكس مما انتهى اليه الامر فى كل من تونس وليبيا والبلاد المشرقية ، وليس معنى هذا انى أدعو لمحو كل لهجة وطنية ، فذلك ما ليس ضروريا ، وانما أعنى انتشار اللغة الوطنية وسأتحدث فى غضون عرض المشكلة اللغوية وطرق والدينية والإدارية والتجارية فى جميع أوساط البلاد اصلاحها عن المجهود المبذول فى سبيل تحقيق التعريب على أساس أنها لغة الاتصال بين مختلف ذوى اللهجات وتسهيل طرقه . وقبل ذلك أحب أن أؤكد - وان كان المحلية - وليس من المعقول ان يظل المواطنون فى جهة الموضوع غير محتاج الى تأكيد - ان اللغة هي حياة ما ، بحاجة الى من يخاطبهم بلغة غير لغة الدولة وأدهى

قضية العربية فى المغرب قضية مزمنة والحق يقال ، فهي ليست بنت اليوم ولا ناشئة فقط عن أثر الاستعمار فى وطننا ، ولكنها فى اصلها ناشئة عن تقصير أجدادنا العرب فى اكمال مهمة التعريب فى المغرب من جهة ، وعن الركود الذى أصاب المغرب وسائر العالم الاسلامي من جهة أخرى . وقد وجد الاستعمار فى هذين المظهرين لتخلفنا اللغوي والاجتماعي وسيلة حاول أن يستغلها ليجهز على وجودنا كأمة متحدة بل على وجودنا ككائن حي ويجعل منا امتدادا لوجوده بما يكونه من عناصر اللغة والفكر الذى هو محتواها .

وحيثما حل عهد الاستقلال شعر المخلصون من أبناء الوطن بضرورة العمل على تقوية الكيان الوطني ، وتدعيم الوجود الذاتي الحر ، وكان أول ما فكروا فيه مسألة اللغة التي برزت فى شكل الحاجة الى المغربية والى التعريب .

وطبعا فان كل عمل صالح لا يعدم صعوبات من نفسه والمعارضين من ذوى المصالح أو المستفيدين من الوضع الذى خلفه الاستعمار ، وهكذا فشل القائمون على العمل ، بينما أخذت الجهود المغربية جوانب متوازية لتحقيق الهدف المنشود .

وسأتحدث فى غضون عرض المشكلة اللغوية وطرق والدينية والإدارية والتجارية فى جميع أوساط البلاد اصلاحها عن المجهود المبذول فى سبيل تحقيق التعريب على أساس أنها لغة الاتصال بين مختلف ذوى اللهجات وتسهيل طرقه . وقبل ذلك أحب أن أؤكد - وان كان المحلية - وليس من المعقول ان يظل المواطنون فى جهة الموضوع غير محتاج الى تأكيد - ان اللغة هي حياة ما ، بحاجة الى من يخاطبهم بلغة غير لغة الدولة وأدهى

من ذلك أن نحتاج أحيانا الى أن نوجه اليهم الكلام بلغة من لغات المستعمرين الذين استعبدوا بلادنا وأرادوا أن تكون لغتهم هي لغة الربط بين مختلف العناصر القومية .

اننى أوجه قبل كل شيء اللوم على أجدادنا من رجال العرب الذين حملوا رسالة الاسلام والعربية لهذا الوطن، فانهم عوضا عن أن ينكبوا على العمل لاكمال مهمتهم التاريخية المقدسة ، شغلوا أنفسهم بالتطاحن على الغنائم وعلى مقاعد الحكم ، وخلفوا في وطننا مشاكل اجتماعية لا يمكننا أن نتجاهل مصدرها اذا كنا نريد أن نبعث عن الدا، ونلتجس لة الدواء .

لقد وصل آبائنا الى المغرب ليؤدوا رسالة الاسلام كاملة ولكنهم سرعان ما اتصلوا بالجبال المغربية ، فاخذ الحاكمون منهم يتملقون الجمهور ويبدلون أقصى الجهد لرضائه في سبيل الاستعانة به على خصومهم السياسيين - واشتغل الاشراف وذرية الصالحين منهم بتكوين ادرستوقراطية خاصة لا تعنى بغير الاستغلال للشعب والاستفادة منه باسم الصلاح الموروث والسلالة المقدسة . وهكذا لم يواصل الإبناء ما عمل له الآباء من نشر للدين وللغة القرآن في هذه الربوع ، ولولا طائفة من رجال العلم الذين وفوا للتراث النبوي الذي ورثوه ، ولولا هذه المعاهد والزوايا التي كان يؤسسها أولئك المخلصون ، ولولا الجهود التي بذلتها الدولتان البربريتان المرابطية والموحدية في خدمة العربية ، لكان الامر اخطر مما هو عليه الآن ، ولدخلت العربية في خبز كان في المغرب .

وقد زاد في الطين بلة ، الاضطراب الذي صاحبه المغرب في تاريخه كله والذي انتهى الى تباعد الاتصال الفردي بين مختلف الاقاليم المغربية ثم انعزال بعض الجبال التي وان احتفظت بارتباطها السياسي بالدولة فقد عاشت اجيالا حياة خاصة بها تتطور في دائرة العزلة وتنسى ما عرفت من العربية التي لا يبقى لها وجود في غير المسجد والكتاب القرآني وعلى السنة بعض الفقهاء ، (وبعض المشارطين) .

فاذا أضفنا الى هذا وذاك ، تلك العلة التي صاحبت الثقافة العربية في كل انحاء العالم ، وهي انها تطورت في دائرة ضيقة من العلماء واللغويين والمفكرين .

وبمعزل عن عامة الشعب ، الامر الذي ادى الى خلق ازدواج لغوي بين لغة الكتابة ولغة الحديث ، عرفنا حقيقة الازمان الذي اشهرت اليه في مرضنا اللغوي ، وعرفنا كيف يجب أن نواجه المشكل على حقيقته لاصلاحه .

تم هاجم الاستعمار التركي سائر بلاد العرب ما عدا المغرب ، فاضعف ذلك العربية في مراكز ازدهارها في بغداد والقاهرة ودمشق ، في الوقت الذي أقل فيه نجم الاسلام والعربية في الاندلس ، وبقي المغرب لنفسه يقاوم تيار العجمة الذي يهاجمه من الداخل ومن الخارج، ومن الحق أنه قد انتصر عليه أو أوقفه على الاقل في أضيق حدوده . ولكنه لم يستطع أن يقوم بالمهمة على الوجه الذي كان من الممكن أن يقوم بها لو استمرت الاندلس في تقدمها ومراكز الشرق العربي في تفتحها، ومع ذلك فان صناعة الانشاء انحصرت في المغرب في القرن الماضي حسبما شهد بذلك بـيرج التونسي الرحالة الذي جاب الآفاق ودرس المجتمعات العبرية المختلفة .

وكانت لنكبة الاندلس آثارها المسترسلة على بلادنا فان الاسبانين لم يقتصروا على حدود الاندلس الطبيعية ولكنهم تطلعوا الى التغلغل في بلادنا حيث بدأوا يقصون من أطراف أرضنا ، وهكذا نزلوا الى سبتة والى مليلية والى مراكز في الريف وفي الصحراء المغربية ، حيث أصبحت العربية في هذا الوسط المغربي مجرد لهجة عائلية في احياء عمالية مستعبدة .

ثم هجم الاستعمار الفرنسي على وطننا فيما هجم عليه من بلاد العرب ، ووجد نقط الضعف السابقة فحاول الاستفادة منها للقضاء على العربية وفرنسة البلاد .

ان الاستعمار اللغوي والثقافي ، طابع بارز في أساليب الاستعمار الغربي الحديثة أتبعها في كل الاوطان التي نكبت به ، وقد حاول المستعمرون دائما أن يجعلوا من شعوب المستعمرات أمما وأفرادا على صورة المستعمر وغزاه ، فكانت لغة الفاتح هي المستعملة وحدها او مع اللهجات المحلية في كل مرافق الدولة وفي التعليم وفي المعابد أحيانا ، وفي السياسة والتجارة بالاحرى ، وكان ابراز الاختلاف بين الطوائف المتساكنة في وطن ما ومحاولة تدخل المستعمر للربط

فينا بينها بحكمه وسياسته ولفته ، من الوسائل الفعالة فى السيطرة على الشعوب والهيمنة على مصيرها .

وبهذه الروح بدأ المستعمرون الفرنسيون والاسبانيون عملهم فى المغرب . فكانت الفرنسية والاسبانية لغة التعليم الاساسية فى كل المدارس التى تخرج الموظفين والمساعدين للدولة .

وكانت الادارات الحاكمة كلها لا تتكلم الا الفرنسية وهى العالم الذى يجد فيه العربى الحاجة الى ترجمان حسب تعبير الشاعر العربى .

ولن ننسى أبدا أننا كنا نضطر دائما الى التقدم للترجمان الحر الذى يجلس على الطاولة فى مباح ادارة البريد ليكتب لنا عنوان رسائلنا الى اخواننا داخل المغرب أو خارجها بالحروف اللاتينية مقابل بعض الفلوس التى نعطيها له والتى سماها بعض الظرفاء آنذاك بضريبة الجهل باللغة الاجنبية .

وكان المستعمرون الى جانب ذلك يثبون فى اذهان النخبة من رجالنا وطلبتنا ان الفرنسية مثلا ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها ، لان العربية لا تتسع لدراسة العلوم وللتعبير عن الافكار ، وليس لها ما للفرنسية من المرونة ومن القدرة على الاداء ، ولكثرة ما قيل هذا الكلام وكرر ، ولكثرة ما حيل بين المثقفين من اخواننا وبين لغتهم الاصلية ، ولكثرة ما فسر لهم الجهل الذى يشعرون به بالعربية بنقص فى اللغة نفسها ، اصبحت فئة من النخبة المغربية التى تحصل شهادات عليا . تؤمن بتلك الاغلوطة المندسة ، حتى كتب الشرايبي فى كتاب له بالفرنسية ان العربية لا يمكن أن تكون لغة المخاطبة للمغاربة ، لانهم لا يفهمون العامية فأحرى الفصحى التى تضيق عن التعبير عن الافكار والمقاصد ، وهذا ما جعل قسما من المعلمين يناقشوننا فى أيام دعوتنا الاولى للتعريب بعد الاستقلال ، يعجز العربية عن اداء المهمة التى تقوم بها الفرنسية .

وقد زاد المستعمرون بعد الاستقلال دعاية أخرى ، وهى تخويف المعلمين المغاربة الذين يعلمون الفرنسية فى المدارس المغربية من ضياع مستقبلهم فيما لو أصبحت العربية لغة التعليم فى جميع مواد الدراسة المغربية ، وهو وان كان تخويفا فى غير محله ، فانه قد اثر فى بعض اخواننا الذين لم يتأخروا عن مجادلتنا بهذه

الحجة فى كثير من المناسبات ، أذكر منها مناسبة المحاضرة التى ألقيتها بنادى الامل فى السدار البيضاء منذ بضعة أعوام .

على أن المستعمر لم يقف عمله لهدم العربية عند فرنسة التعليم والادارة ووسائل النشاط العام ، ولا عند الدعايات المختلفة والتى تلبس لكل ساعة لبوسها ولكنه تجاوز ذلك الى محاولته الاجرامية لخلق مجتمع بعيد عن العربية وعن الاسلام . وذلك حينما وضع خطوط السياسة البربرية التى تبلورت فى الظهير البربرى المؤرخ بـ 16 ماي 1930 والقرارات والمنشورات التى أعقبت تنفيذها .

ولقد شرحت فى رسالة خاصة مطبوعة بمصر ، عناصر السياسة البربرية وبظاهر تطبيقها ، وتتلخص فى نقط ثلاث :

1 - مقاومة الاسلام وتمسيح البربر .

2 - مقاومة الشريعة الاسلامية عن طريق احياء الاعراف المحلية والاتجاه نحو القانون الفرنسى والمحاكم الفرنسية .

3 - مقاومة اللغة العربية ، والحيولة دون البربر وتعلمها والكلام بها .

فأما ما يرجع للنقطة الاولى ، فقد تجلت فى تشجيع التمسك على عملها التبشيري الذى كانت تقوم بتوجيه الاسقفية العامة فى الرباط ونجد خبرها مفصلا فى مجموعة مجلة المغرب الكاثوليكي التى كانت تصدر فى العاصمة ، وفى محاولة الزام الشباب البربرى الاتصال بالرهبان ولبس القبة وغير ذلك من المظاهر الصبائية التى كان يدفع اليها حزم الاب فوكو المتجبر . ومن أعظم مظاهره - وهو الذى يهنا هنا - منع السلطة للعلماء وشيوخ الطرق المخلصين من القاء الدروس الدينية فى المساجد وفى القبائل التى تدخل فى اطار الظهير البربرى ومن التجول فيها والاتصال بأفرادها واقفال العديد من المساجد والكتاتيب القرآنية وتشريد أئمتها والمشارطين فيها .

وأما مقاومة الشريعة فتجلى طبعاً فى اقفال المحاكم الشرعية واحلال المحاكم العرفية محلها ، مع وضع هذه المحاكم تحت اشراف الحاكم الفرنسى الذى يقوم بوظيفة وكيل الدولة والترجمان الذى يقوم بوظيفة

كاتب الضبط واستعمال الفرنسية وحدها وهي اللهجة المحلية في كل أشغال المجلس العرفي ، وكتابة العقود في الزواج والطلاق والميراث وغيره بغير العربية .

أما البرنامج المتبع في محاربة العربية في القبائل العرفية ، فهو محور العربية من برنامج التعليم مطلقا وتكوين المدرسة البربرية الفرنسية في جميع سلمها الابتدائي والثانوي ، وعدم استعمال العربية في أي اتصال مع البربر ، ومقاومة العطارين والمتجولين ليلا ينقلوا العربية الى الجبال ، ومراقبة الناس في الشوارع وفي كل مكان حتى لا يتكلموا العربية مع أخذهم بالعقاب اذا فعلوا ، ووضع النحر والمعاجم لمنتجات المحلية وكتابتها بالحروف اللاتينية ، الى غير ذلك من التدابير التي اتخذها المستعمرون للفرقة بين مواطنينا عن طريق محور الاسلام والقضاء على العربية .

ومن حسن الحظ أن الفرنسيين لم يستطيعوا ان ينجحوا موقتا وبطريق القوة ، الا فيما يرجع لاقراء المحاكم العرفية .

أما فيما يرجع للغة العربية والدين الاسلامي ، فقد قاوم الشعب في الجبال وفي الوهاد حتى انتصر على المستعمرين ، واقلبت مجهوداتهم ضدا عليهم ، فاخواننا الامازيغ اشد تمسكا بالدين المحمدي وبالعربية والشريعة الاسلامية اليوم من كل شعب عداهم ، وذلك ما يجب أن يعد من مفاخرهم ومن مفاخر الامة الاسلامية كلها .

لقد انتصرت العربية في الجبال ، وذلك بانتشارها رغم السعود الموضوعة في وجهها أيام الاستعمار ، وقد لاحظ الفرنسيون أنفسهم انتشار العربية من جهتين ، أولا عن طريق وفرة عدد المتكلمين بها الذي كاد يضم كل القبائل والقرى ، وثانيا ، عن طريق تسرب العديد من كلماتها في اللهجات البربرية التي أصبحت تفوق نصف الكلمات التي يشتمل عليها معجم المفردات المستعملة في الحديث البربري .

لقد قاومنا السياسة البربرية بكل مظاهرها ، وتسربنا في اشد أوقات الاستعمار الى المدارس التي أسسها المستعمر لتكون صرح بنهاية الاستعمار ، فجعلنا منها والحمد لله قلعا للعربية وللإسلام ، وانتي

لاحقاً بهذه المناسبة اولئك الاخوان حواربي العروبة الاولين من طلبة معهد أزرو ، الذين عملوا هنا على مقاومة كيد المستعمر والمحافظة للبلاد على وحدتها وكيانها .

وكم أجدني سعيدا وملوا بالعزة والنخوة ، كلما زرت مدينة أزرو واجتمعت الى طلبة ثانويتها فوجدتهم جميعا يتحدثون بالفصحى ويناقشون بها في كل الموضوعات التي تهم بلادنا ، وقلت : هذه المدرسة التي أرادها الفرنسيون لتكون رمز نجاح سياستهم المفرقة أصبحت بفضل شهامة اخواننا الامازيغ رمز وحدة البلاد وتعلقها كلها بالعربية وبالإسلام .

لنتصور - لا قدر الله - ان المستعمرين نجحوا في تنفيذ خططهم الجهنمية ضد العروبة والدين المحمدي وتصوروا أن هذا البرنامج كان يحتوى في جملة ما يحتوى عليه ، على توسيع منطقة هذه السياسة حتى تشمل المغرب كله ، وذلك عن طريق اصدار قرارات وزارية متواصلة تدخل في كل مناسبة الاقليم الفلاني أو القبيلة الفلانية في عداد الاقاليم او القبائل ذات العرف البربري . لنتصور ذلك كله ، ولنحمد الله على أننا قد نجحنا في مقاومة مجهوداتهم ، ولنستبشر خيرا بمستقبل العربية في بلادنا ان شاء الله .

الميراث الاستعماري

لقد حصلنا على الاستقلال لهذا الجزء المهم من وطننا ، ولكننا ورتنا عن الاستعمار في هذا الميدان مخلفات لا تقل أهمية عن المخلفات الخطيرة التي تكافحها ونكاد نقضي عليها .

فهناك المناطق غير المحررة ، ومن جملتها فيما يهنا الآن سبتة ومليلية والجزر الجعفرية ووادي الذهب . وقد وقعت الهيمنة للقوية من طرف المستعمرين على هذه الجهات ، ولا يمكن ردّها لحظيرة العروبة قبل أن تعود الى حظيرة الوطن ، ولكن والحق يقال ، كان من الممكن للدولة أن تبذل جهودا لنشر الثقافة العربية الاسلامية لمواطنينا في هذه المناطق ، عن طريق فتح مدارس ومعاهد مغربية بها ، ولو على أساس التبادل الثقافي الذي تنظمه اتفاقيات بيننا وبين الاسبان ، وكذلك تشجيع مجموعة من ابنا هذه المناطق المغربية المستعبدة على اتمام دروسهم في إحدى المعاهد او الجامعات المغربية في القسم المحرر من وطننا .

والاخذ بطريقة التعاون الثقافى لا يمس أبدا موقفنا السياسى من هذه الاجزاء المفتصة ، ولكن يساعد على الاحتفاظ بالروح القومية فى وسط اخواننا ريثما يجعل الله لهم ولنا من الاستعمار مخرجا .

وهناك قضية شنقيط او موريطانيا المعروفة بفصاحة أبنائها وعلو كعبهم فى الادب العربى وفى الشعر ، وقد اقتطعها الاستعمار من المغرب ، واتبع فيها سياسة ادماج زمنا ما ، ثم قرر أخيرا أن يجعل دستوروا ينص على أن الفرنسية هى لغتها الرسمية ، وبذلك وضع خطة لفرنستها النهائية باسم دستور واستقلال مزعومين لجمهورية اسلامية مصطنعة . وواجب المغرب اذن للمحافظة على عروبة اقليم من أعز أقاليمه هو الكفاح المستمر لتحسير شنقيط وعودتها لخطيرة الوطن حيث يشملها ما يشمله من بعث واصلاح فى جميع الميادين .

وهناك برنامج التعليم وسياسته التى كانت ترمى لفرنسة البلاد والقضاء على كيانها . وقد كان طبعا أن تبدأ الدولة بمجرد اعلان الاستقلال بالعمل على تحويل تلك السياسة وذلك البرنامج والاستعاضة عنها ببرنامج عربى وسياسة مغربية محض . وليس من الممكن أن نتجاهل المجهودات التى بذلتها وزارات التربية والتعليم المتعاقبة لانجاز الرغبة الشعبية التى يشعر بالحاجة اليها الجميع . كما أنه ليس من الممكن أن نتجاهل الصعوبات التى تواجه عادة كل عمل ايجابى فى هذا القبيل .

فالخطط الاستعمارية من التغلغل فى كياننا ومن الاشتباك بمجارى الحياة والاعمال الحكومية ، الى الحد الذى تجعل كل اصلاح فى جانب مرتبطا بما يمكن أن يكون عليه الامر فى الجوانب الاخرى ، فما كان التعريب ليتم ومغربة الادارة ما لم يقع البت فيهما كما أن المغربة ما كانت لتتم الا اذا وجد التقنيون باللفة العربية ، وهذا ما لا يمكن أن يقسح الا باصلاح نيابة التعليم وتكوين الاطارات بالعربية ، الامر الذى لا يمكن بدوره أن يتم الا اذا تقرر تعليم العلوم بالعربية فى كل درجات سلم التعليم ، وهو ما لا يتحقق الا بتخريج المعلمين والاساتذة بالعربية الامر الذى يستوجب تعريب التعليم العالى ، وهل يتسم ذلك دون تكوين تعليم أساسى لتلامذتنا بالعربية ، وهل يقع تعريب الابتدائى وحده

دون تعريب الثانوى ؟ وهل ينتجز هذا كله دون أن تقرر وزارة المالية ضرورة اعطاء التعليم وتعريبه الاولوية فى برامجها ، وهل يمكن ذلك دون أن يقبل المشرفون على التعليم ضرورة المساهمة مع التخطيط الاقتصادى العام وادخال اعتبار الانتاج فى برامج التعليم ، وكل ذلك يستوجب اعتبارات لا حد لها لمسائل توحيد التعليم وتنسيقه ، وتوزيع اقسامه ، ووسائل تحويل التعليم الاصل ، وما يكتنف ذلك كله من نقط يحوم حولها الجدل ويكثر فيها التأويل .

لقد واجه التعليم فى المغرب مشاكل لا يهنا منها الا الروح التى ملكت تفكير القائمين عليه ، وهى : هل يجب البداية بتعميم التعليم ، أم باصلاحه ، وبعبارة أخرى هل يمكن تعميم التعليم واصلاحه دفعة واحدة أم لا يمكن ذلك . فاندفعت الحكومة اولا الى التعميم ثم أخذت تسير فى التعميم وفى الاصلاح ، وكان النظر فى أمر التعريب لا يعدو تجارب أولية ، فقد قرر تعريب بعض السنوات المدرسية ، ثم وجدت الصعوبات أثناء الدخول للثانوى اذ احتاج التلامذة الى أخذ وقت لتصحيح ما عربوه حتى يسايروا الدروس الثانوية ، وتنبه المسؤولون بعد الى أن العقدة كامنة فى ايجاد المعلمين بالعربية ، وذلك ما سارت فيه الحكومة الآن سيرا حثيثا اذا واصلته فسيؤدى لا محالة الى النتيجة المطلوبة .

وانه لمن الواجب علينا أن نعترف بما بذلته وزارات التربية والتعليم المتعاقبة من جهود لتعريب التعليم أو تكوين أسس سياسة صحيحة للتعريب ، منوهين بما قامت به من أبحاث وذلت من صعوبات قد يستهين بها غيرنا ، أما نحن فنقدرها قدرها ولا نألوا جهدا فى التعريف بها . كما أن من الانصاف أن نبين ملاحظتنا على المسؤولين فى هذه الوزارات بروح لا يقصد منها غير المساهمة فى البناء والارشاد لوسائله .

فمن الحق ان نعترف بأن التعليم الابتدائى الاهلى كان فى شمال المغرب معربا الى ان مواء التعليم الابتدائى فى التعليم الاسلامى كان باللفة العربية ، وقد فهم المسؤولون توحيد مناطق المغرب فى التشريع وفى التوجيه على غير حقيقته . فعوضا من أن يحتفظوا فى مدارس الشمال بالعربية وحدها فى الابتدائى ، ريثما يتاح لهم تعريب التعليم فى جميع أجزاء البلاد ،

وبنفس الدرجات التي دخلت بها في مدارسنا تصبح غولا تأكل العربية وتقتل السذوق العربي في نفس التعليم ، واني لا اجهل أن العربية في طورها الحاضر لم تساير بعد في اساليب تعلمها وتعليمها الطرق التي تعلم فيها تلك اللغات الاجنبية ، وذلك ما يوجب علينا أن نفسح للعربية المجال حتى تقف على قدميها ونفسح لابنائنا المجال حتى يخرجوا من الابتدائي وهم قادرون على حماية انفسهم وافكارهم الحماية اللغوية التي هي عنوان دوام الشخصية .

واذن فالواجب على الدولة ، أن تضج الى جانب المدارس العادية الآن ، تخطيطا لتأسيس مدارس عربية ليس لها من اللغات الا ما يمكن أن يكون في مثيلاتها من المدارس في البلاد التي تعنى بنفسها وبمقوماتها ثم تعمل على أن تجعل من هذه المدارس نقط الزيت التي تعم كل البلاد . وليس من المقول أن ندع هذا النوع من التعليم لبعض المطوعين من مؤسسي المدارس الحرة الاصلية ، أو الكتائب المجددة . وان كنا نقدر أهمية الدور الذي قامت وتقوم به هذه المدارس في المحافظة على العربية وننوه تنويعها عاظرا بالمساعدة التي تلقاها من ميزانية وزارة التربية الوطنية والتي لولاها لما استطاعت مواصلة أداء رسالتها على الوجه المرغوب فيه .

وما دمنا نتكلم على هذا الجانب من جوانب التعريب فيجب أن ننتبه الى ضرورة العمل على نشر العربية بكل الوسائل المثيرة والتي تدخل في اطار التربية الاساسية ولا سيما في الجبال البربرية ، واني لا اقترح على وزارة الانباء ، أن تنظم في الاذاعة المغربية برنامجا يوميا لتعليم لغة الكلام العربية عن طريق الاثير لاسيما وان آلات الاستماع اليوم موزعة بكثرة في كل البوادي ، فاذا أعطى قسم لتعليم لغة الكلام العربية ضمن الاذاعة فسيكون له اقبال كبير من اخواننا الذين يهمهم أن يتقنوا العربية في الجبال .

على أن الاذاعة تستطيع أن تقوم بدور فعال في تحسين لغة الكلام ، وفي اذاعة المفردات التقنية ، وكذلك التمثيل والسينما وغيرها من وسائل الدعاية التي سهلت الاتصال بين الناس .
وأبضا فان العناية بالمعاهد الدينية والمساجد ، وتكوين المرشدين الاسلاميين الفصحاء ، ومساعدتهم

وفي جميع درجاته ، اضافوا الفرنسية او الاسبانية الى العربية في مدارس الطور الاول ونفس الساعات التي لها في جنوب المغرب . وكان من الواجب أن تؤسس مجموعة مدرسية عصرية على غرار مدارس محمد الخامس أساس التعليم بها العربية ، ثم يعمل على تكثير عددها في جميع انحاء المملكة بقدر ما تهيئه من معلمين ويرد الى مناهجها شيئا فشيئا ما كان موجودا من المدارس العربية الفرنسية او الفرنسية المحض ، ولكننا ذهبنا بعكس ذلك نعمم التعليم الفرنسي العربي في عموم المغرب ، وننقل الفرنسية والاسبانية بسرعة الى شواحق جبالنا التي يجب أن نبذل كل جهد لنشر العربية فيها .

انه مهما تكن الجهود التي نبذلها للتعريب والتي نتحدث عنها ، فليس من الضروري أن نواصل فتح المدارس باللسان الاجنبي ، ويجب أن نحل مشكلة المعلمين بالعربية بجميع الوسائل الممكنة .

ولاكون اكثر وضوحا ، أحب ان أزيد في البيان فأقول : ان للتعريب جوانب عديدة يتناولها الباحثون اليوم عندنا ، ولكن هنالك جانبا لا يتنبه اليه الا القليل ، وهو حماية طائفة من الاطفال الذين أسعدهم الحظ فلم يستعجموا من اول يوم وتلقينهم الدروس الاولى بالعربية وتوقيف الاسبانية والفرنسية عند الحد الذي وصل اليه الاستعمار ، ان في ذلك الخطوة الاولى للتعريب الحقيقي لمجتمعنا .

واني لاعلم ان هنالك مفكرين يثيرون هنا قضية تعدد اللغات في التعليم الابتدائي واخرى ما يفرضه ، وسيعرضون علينا كل الحجج والادلة التي قيلت في صحف الفرنسيين والانكليز والجمعيات التي أسست لفائدة التثنية اللغوية في التعليم ولكنني أقول لهؤلاء جميعا . مهلا على رسلكم فان القضية التي يدافع عنها الفرنسيون ليست الا جانبا من جوانب الوحدة الاوربية التي يعمل لها جمهور قوى بدافع عوامل اقتصادية وسياسية لا وجود لها لدينا . ومهلا على رسلكم ايضا فانني لا أريد أن أنقص من قيمة تعلم اللغات وآثارها على التقارب الانساني والثقافي وعلى توسيع افق المعرفة عند الانسان ولكننا الآن في مرحلة تدعونا الى الحذر والى العمل بجهد لنُدافع عن وجودنا ، وان التجربة بينت أن الفرنسية او الاسبانية حينما تدخل للمدرسة الابتدائية مع العربية

على القيام بمهمتهم داخل الاراضى المغربية لن يخدم الدين والخلق فقط ، ولكنه سينشر العربية ويعين على تعمق الجمهور لفهم مفرداتها ، انه ليس هنالك شئ الصق بحياة الفرد وسلوكه كالدين الذى يتغلغل فى الفكر ويفرغه اللسان وتعمل به الجوارح . والعلماء والائمة المرشدون هم التراجمة الذين ينقلون فحوى ذلك وقاله للفرد وللمجتمع .

مجهودنا بعد الاستقلال

لقد ورثنا بعد الحماية جهازا اداريا ضخما كان جل رجاله من الفرنسيين وكانت لغته هى الفرنسية وحدها ، ولا تستعمل العربية الا فى حاجة تفهيم الاهالى بعض المسائل او ابلاغهم بعض الاوامر . ولقد بدأنا مقربة الادارة عن طريق حشد المثقفين وانصافهم من اخواننا وجلهم والحق يقال ممن درسوا الفرنسية ولهم يتقنوا العربية الا قليلا ، ولكن المغربية لم تستطع ان تتم كلها لان اطاراتنا الفنية ضعيفة ، الامر الذى فرض علينا الاحتفاظ بقسط لا بأس به من الاجانب فى انتظار تكويننا السريع او البطيء . وقد خيل الى المسؤولين منا زمنا ، ان هذا التكوين يجب ان يكون بالفرنسية والفرنسية وحدها ، نظرا للفائدة المتوخاة لانه ما دما محتاجين الى عديد من الفنيين الاجانب وما دام هؤلاء فى ادارتنا فليس من المعقول ان نأتيهم بموظفين فنيين مغاربة متعلمين بغير الفرنسية او لا يعرفون الفرنسية ، وهذا الخطأ فى التقدير ضيع علينا وقتا كان يجب ان نوزع فيه اخواننا على كل الجامعات وبكل اللغات . وفى انتظار وجودهم يجب ان ننفذ اسس التعريب التى لا بد منها ، حتى يدخلوا على اساس العمل بلفتهم واذا كان لا يزال هنالك اجانب فمن المستحسن ان يشجعوا على تعلم العربية ، او عند الضرورة تستعمل الترجمة فى اضيق حدودها .

واذن فالقضية قضية اقتدار الموظفين المغاربة الموجودين والذين سيوجدون ، على القيام بوظيفتهم باللغة العربية ، ولو كانوا قد درسوا فروع اختصاصهم بمختلف اللغات الاجنبية .

هذه ، الى جانب مجهود وزارة التربية هى نقطة البداية التى قامت بتنفيذها وزارة السوطفية العمومية

والاصلاح الادارى ، وهى فكرة طالما راجحت فى كتاباتنا وفى مناقشاتنا والتى دخلت ضمن برنامجنا . المرحلة الاولى فى هذه الخطة حسب ما جاء فى مقدمة كتاب المراسلات الادارية الذى نشرته الوزارة وهى ان تقترح الوزارة على موظفى مختلف الادارات من مواطنين ومواطنات ان يعملوا على تسخير اللغة العربية واستعمالها كوسيلة واحدة فيما ينجزونه من اعمال ، فارضة على نفسها كذلك ان تعمل جادة فى رفع مستوى تكوين لولئك الموظفين حتى لا تبقى لغة التخاطب بينهم وبين المواطنين الذين يطرقون ابواب مكاتبهم الادارية فحسب ، بل لتصبح وحدها - من غير اى منافس - لغة المراسلة ولغة الاتصالات الادارية .

وقد ارادت الوزارة قبل كل شئ ان تحرر موظفيها من مركب النقص الذى يشعرون به نحو لغة بلادهم ونحو انفسهم ، ونظمت فى سبيل ذلك مئات المراكز التعليمية لموظفى الاطارات الوسطى والثانوية ، وفرضت النجاح فيها كشرط لكل تقدم فى الاطار ، وستفرض ذلك نفسه على موظفى الاطارات العليا . ان هذه الخطوة الجريئة متى بلغت مداها ستساعد على تعريب الادارة فى اقرب وقت ممكن ، وستسهل على المتخرجين بالعربية او المتقنين للعربية العمل فى جو عربى لا تسد عليه العجمة باب التفتح والنمو .

ومن الانصاف ان نقول ان هذه الخطوة تفقد قيمتها اذا لم تتم الوزارة ما وعدت به من خطوات اخرى فى سبيل تعريب الادارة المغربية والقائمين عليها . ولا سيما فى سبيل تعريب المسؤولين الكبار الذين يذكرون ويكتبون بالفرنسية ، فمن العار ان تظل المشروعات التى تعرض على الدولة تكتب بالفرنسية ثم تنقل بعد ذلك الى العربية ، واسلوبها الفرنسى باد فى اللغة وفى الفكر .

وكان يقف امامنا القضاء العصى بجميع جهازه . ذلك القضاء الذى ورثناه عن الاستعمار بقداسته واجراءاته ولغته وبقضااته الاجانب ايضا ، ومن حسن الحظ ان القانون الذى صادق عليه البرلمان اخيرا قضى بتعريب القضاء . فى جميع درجاته فانهت بذلك خرافة الضرورة الفنية فى هذا الجانب من نشاطنا القومى .

ومن حسن الحظ ايضا ان القسم العربى لكليتى الحقوق والآداب والمدرسة الادارية العربية بدأت تعد الكثير من

رجال اللغة ولا أسرارها .

ولغتها بعكس الواضعين للعبرية الحديثة فلم يكونوا من
والمسألة اليوم ، هي كيف يرتفع مستوى العربية
الجديدة ويسع إفق دلالاتها حتى يشمل كل جوانب
الحياة والنشاط المعاصرة مع المحافظة لها على هذه الصلة
المتينة بالضاد القديمة وبالبيان القرآني المعجز ؟ ثم
كيف يمكن العمل لتصبح اللغة الفصحى الحديثة لغة
الخطاب والعاملة في الوقت الذي هي فيه لغة الكتابة
والخطابة والتأليف ؟

وهذا ما يشغل المصلحين الذين يمتنون بصير اللغة
العربية في بلادنا وفي سائر بلاد العرب ، وقد أسست
وزارة التربية الوطنية معهدا للتعريب (I) ليقوم بالبحث
والدراسة لحل مشاكله وهو في اتصال مستمر مع
المجهودات العربية في البلدان الأخرى عن طريق مكتب
الدائم لمؤتمر التعريب وقد عقد هذا المكتب عدة
مؤتمرات للتعريب في الرباط وأقرت منهاج عمله في
أطار الجامعة العربية .

وقد قسم معهد التعريب ميادين العمل لصالح العربية
الى قسمين : قسم داخلي للغة وقسم خارجي عن اللغة .
ومنجاري هذا التقسيم فيما نتناوله من بحث في
هذا الحديث .

القسم الداخلي

أ - الكتابة ، لقد شعر العرب منذ بداية النهضة
الحديثة بالنقص الذي يجدونه في الكتابة العربية التي
تحتاج الى الشكل ، ولا يمكن قراءتها قراءة صحيحة الا
به ، ولا يمكن للكاتب أن يشكل كتابته الا اذا كان
عارفا بالنحو وقواعده ، بينما نجد اللغات الأجنبية اليوم
يتقن أربابها القراءة والكتابة على الوجه الصحيح ولو لم
يتبحروا في معرفة اللغة ولم يتقنوا نحوها ، حتى انه
يمكن للأجنبي الذي لا يعرف لغة ما من اللغات الراقية
أن يتعلم القراءة في مدة بسيطة ولو كان لا يفهم ما
يقرأ ، هذه هي المشكلة مجملتها ، وان تفصيلها يحتاج
الى وقت لا يتم في ظروف هذه الفصول .

الطباعة

ومثل ما تقدم يقال في الطباعة باللغة العربية وفي
الآلة الكاتبة وكل اخراج عربي عن طريق الآلة .
وتطرح قضية الطباعة العربية مشكلتين أساسيتين :

حملة شهاداتها بالعربية المحض أو المختلطة ، ولكن هؤلاء
انفسهم يظنون في انشاء مدارسهم للعمل بحاجة الى جو
عربي لا بد أن يساهموا في خلقه ، ولا بد أن تكون
نية الحكومة متجهة بصفة جدية الى وجوده ، فانقوائين
المغربية اليوم لم تجمع كلها ، ولم يعرب ما هو موجود
منها . مع أن ذلك في مقدمة الخطوات التي يجب أن يعمل
لها المجاهدون في سبيل التعريب بالمغرب .

مشاكل اللغة العربية

والآن لنعرض الى جانب آخر من جوانب العمل على
ضمان مستقبل زاهر للعربية في بلادنا وفي كل البلاد ،
وهذا الجانب مهم جدا لانه يتعلق بحيوية العربية
ومقدرتها على التطور ومسايرة روح العصر ، دون أن
تنقطع الصلة بالماضي او تخرج عن روح الفلسفة النغوية
التي سايرتها دائما .

واذا نظرنا الى لغة العرب اليوم ، نجد من جهة
العامية التي تتحدث بها كل بلد أو اقليم من أقاليم
العرب ، واللغة الفصحى القديمة التي تدرسها ثلة من
المتقنين وتحتاج في تفهمها الى حل المفردات ثم تجميع
المعنى المقصود ، من جهة ثانية ، وبينهما هذه الفصحى
الحديثة التي هي لغة الكتابة والتحرير والخطابة ، التي
هي في الواقع محاولة ترمي الى المحافظة على اللغة
القديمة ورفع مستوى العامية اليها او كانها صلح ما بين
العامية والفصحى .

وقد استطاعت اللغة العربية المعاصرة أن تحافظ
على الطابع العربي في النحو وفي الأساليب البلاغية ،
وبذلك يمكن ان يقال بهذا الاعتبار انها امتداد الفصحى
القديمة في شكل حديث او تعبير عربي عن أسلوب
الحياة الجديدة ، ولكن هذه الفصحى الحديثة ليست
تلقائية بالمعنى الذي يجب ان تكون عليه اللغة اذنية ،
ان فيها ولا شك نوعا من الاصطناع الذي أحوج اليه
الدرس والتعمق واكتناء أسرار اللغة ، وأحيانا التعبير
عن الفكر الذي يفكر بلغة أخرى ، ومع ذلك فاذا نحن
قارنا علاقة العربية الحديثة بلغة القرآن نجد الصلة
متينة ومستمرة بعكس ما جرى للعبرية الحديثة التي
ابتعدت كثيرا عن لغة التوراة ، لأن أدباء العربية والفنيين
بشؤونها اللغوية هم قبل كل شيء رجال العربية

(1) أحيل هذا المعهد الى مركز وطني للتعريب ليشمل نشاطه كل مرافق الدولة في حقل التعريب .

١ - كيف يمكن للعربي أن يقرأ ليفهم ، لا أن يفهم
ليقرأ ؟

٢ - كيف يمكن ذلك وآلات العالم العيارية لا تحتوى
على أكثر من 90 حرفا ، بينما شكل أبسط نص عربى
يقتضى 475 حرفا ؟

فما هى طرق التغلب إذن على هذه الصعوبات ؟

لقد حاول الكماليون أن يتغلبوا على ذلك فى اللغة
التركية بإلغاء الحروف العربية وإحلال الحروف اللاتينية
محلتها ، أليس من الممكن أن نعمل مثلهم فننتحل ع- من
الكتابة العربية ونعوضها بحروف لاتينية تبدأ من
اليسار وتضع الحركات بجانب الحروف ؟ ذلك ما دعا
إليه أنبشرون والمستشرقون وبعض ذوى النيات الخسنة
من العرب الذين لم يتسع أفق تفكيرهم للبحث عن
تحسين الكتابة العربية بنفس الروح التى خلق بها
أسلافنا هذه الحروف ثم نقطوها ثم شكلوها وسهلوا إلى
حد ما طريقة استعمالها .

وقد دعا عبد العزيز فهمى إلى لاتينية الكتابة العربية
جبرا فى أروقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة
ولكن الأغلبية الساحقة من العرب
رفضوا النظر فى هذا الاقتراح مقتنعين بأن
تطبيقه سيضيع روح اللغة العربية ويفوت على العرب
الاستفادة من تراثهم الضخم الذى تمتلئ به رفوف
الحزائن الخاصة والعامة فى كل العالم ، وقد اعترف
الاستاذ ماسينيون بأنه كان فكر على اثر ثورة كمال
أتاتورك والغائه للحروف العربية فى تركيا أن من
المناسب أن يصلح الإيرانيون والعرب كتابتهم بطريق
الاقتراس من الحروف اللاتينية ولكنه عاود فوجد أن
لاتينية حروف الهجاء العربى يهدم أساس النحو العربى
الذى هو الاعراب ويضيع على العربية سرها ، لأن
هذه اللغة السامية الخاصة لفحة الشهادة يجب أن
يحافظ عليها كما هى لتؤثر على تكوين عام حقيقى للغة
العالية المقبلة ، وترك الهجائية العربية يؤدى إلى

ضعف الخط العربى الذى هو فى الاسلام المجرد ،
والذى يعيش اليوم من بغداد إلى المغرب .

وهكذا فلم يعد محل للبحث عن لاتينية العربية
وانما أخذ الباحثون يعملون على إيجاد اصلاح للكتابة
العربية ، وللطباعة العربية يهنا منه هنا اصلاح
المغربى الذى عرضه الاستاذ احمد الاخضر والذى كان
نتيجة مجهود دام سبعة أعوام ، والذى اعتمدته فيما
يظهر وزارة التربية الوطنية ، وإن كانت آثاره لم تظهر
فى التطبيق بعد . ويقسوم على أساس ضمان الحاجة
العصرية دون أساس بسنة الكتابة العربية . وطريقة
الاخضر هى أن الحروف العربية تنقسم إلى ثلاثة عناصر :
الحرف ، والصلة ، واللاحق ، وهذا الأخير انحصر فى
ثلاثة انواع أى ثلاث مجموعات من الحروف :

الواحد : للباء والتاء والثاء والغاء والقاف والكاف
واللام .

والآخر للجيم والحاء والخاء والراء والزاي والميم .

والثالثة للسين والشين والصاد والضاد والذون .

وهكذا نزل عدد الحروف إلى تسعين حرفا بما
معه من الحركات والعلامات الخطية ، والنقط والارقام
والحروف ذات النقط الثلاث (ج ب ف) وهكذا توصل
المغرب إلى حل مشكلة الكتابة فأصبح القارىء يجد
نصوصا مشكولة مضبوطة حتى يعود على النطق الصحيح
للكلم العربية .

وسيمكن حل مشكلة آلة الطباعة ، إذا أمكن صنع آلة
تحمل بالعربية ، وانخفض ثمن طباعة اللينوتيب
وأصبحت كتابة العربية وقراءتها سهلة التناول ، سواء
بالخط أو بالطباعة .

ومنذ سنة 1958 ، اشترت وزارة التربية الوطنية
من السيد الاخضر حقوق استعمال طريقته ، وستجعلها
واجبة فى الكتب المدرسية أولا ، ثم بعد ذلك يمكن أن
تصبح اجبارية فى الادارة وغيرها .

يقع ذلك عرضا في اثناء البحث للمعاني عن انسحابها
والمدلولات على الكلمة الدالة عليها .

وهذا الجانب هو قسم المصطلحات العام ، اى الذى
يتناول البحث فى معجم الحياة اليومية وما يعبر به كل
فرد وكل شعب عن الاشياء المحتاج اليها من لباس
وأثاث منزل وأدوات عمل ومرافق وتعبير جديدة او
مدركات عصرية .

وقد لاحظ المعهد ان المغربى يجد فى اللغة الاجنبية
ما يرضيه ولا يجد فى لغته ما يلبي رغبته ، وحينئذ
يحار بين استعمال اللغة الاجنبية او اللغة العامية
مختلا بينهما . مع أن هنالك فى العربية ميدانا لتعشور
على الكلمات الصالحة لتأدية أفكاره ، ولكن اللغة جزء
لا يتجزأ او كائن حى واحد فان اعتنى به عاش وان ترك
ضعف او مات .

ازدواج اللغة

وهذا الوضع الذى يثيره البحث فى معهد المصطلحات
والنحو المغربى ، ينتقل بنا الى البحث فيما سماه بعض
الباحثين العرب بالازدواج فتح اللغة . ويعنى به هذا
التعدد الذى أشرنا الى وجوده فى كل بلاد العرب ، وهو
اللغة الفصحى واللغة العامية . ولتبيين الاولى عن الثانية
طريقة النطق ، ثم طريقة تركيب الجمل ، الى جانب
الاختلاف فى المعجم احيانا . وقد اوضح جورج زيدان
فضل القرآن الكريم على بقاء وحدة اللغة العربية بين
أقطار العرب ، اذ لسواء لاصبح اختلاف اللهجات
الاقليمية التى تتطور كلماتها بحسب الاقليم الذى تنشأ
فيه اختلافا عميقا فى اللغة مثل الاختلاف الذى أصاب
لغات الغرب المشتقة من اللاتينية مثلا .

على أن وجود اللغتين يؤدى حتما الى وجود تفكيرين
لأن اللغة هى قوالب الافكار ، فكما أن هنالك لغة عامية
يلزم أن يكون هنالك تفكير عامى او شعبي كما يلزم أن
يكون بجانب اللغة الفصحى التى هى للخاصة تفكير
خاص ببطقة راقية ، وخطورة المسألة فى وقوف التفكير
الشعبي عند محاولة الكلام بالفصحى والتفكير بها .

ثم ان العامية فى كل اقليم تؤثر على اساليب
الكاتبين بالفصحى ، فيؤثر كل كاتب الكلمات او
الاسلوب الذى يوجه فيه عقله الباطن لانه يتنوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ♦
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ♦ مَالِكِ
يَوْمِ الدِّينِ ♦ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ♦ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ♦ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ♦

المصطلحات

أما فيما يخص المصطلحات والنحو فقد أسست وزارة
التربية معهدا للنظر فى النهوض بها ، وذلك عن طريق
وتجريد التراث العربى لاستخراج الالفاظ العربية التى
تعنى بمسائل الحضارة ، وهو عمل جليل وشاق لما
يستوجبه من مطالعات وحفريات فى بطون الكتب
والمعاجم المبعثرة .

وهذه البداية التى بدأ بها المعهد علمية بكل معنى
الكلمة ، لانه يجب قبل كل شيء أن نعرف ما عندنا
مما نحن محرومون منه ، ومتى تم الاستقصاء وخرجنا
باحصاء شامل ، عرفنا ما ليس موجودا فى العربية من
الكلمات الدالة على مدلولات لها فى لغات العجم اسم او
أكثر ، وحينئذ نتقل الى وسيلة سد الفراغ عن الطرق
المستعملة عند الاجانب من تعريب ونحت واشتقاق أو رد
العامى للاصل أو اتباع ما استعملته العامة مما ليس
له أصل .

لقد سبق المغرب الشعوب العربية للعناية بهذا
الموضوع وبعثه ، اذ لم يسبق لبلد عربى قبل المغرب
أن اهتم بأمر تجريد التراث لاستخلاص عيوبه ، وانما

والشين ، ولكن هذه الآفة ذهبت لتحل محلها آفة أقبح منها وهي نطق الهمزة قافا فيقال القمير عوضا عن الأمير والقرقان عوضا عن القرآن .

فإذا أضيف الى هذا الاختلاف الموجود في الكتابة وفي الازقام وفي الشهرة الاعجمية ما بين المشرق العربي والمغرب العربي عرفت أضرارا لازدواج على وحدة اللغة وما تحدثه من اقليمية في الفكر وفي الاتجاه .

فما هي انوسيلة اذن لتكوين نفس عربية موحدة وسنيسمة ؟

لقد كانت المدارس الفرنسية في المشرق في مقدمة من حمل الدعوة للاستغناء عن العربية الفصحى وكتابتها والاستعاضة عنها بالعامية وبالحرروف اللاتينية . وقد سبق أن نقلنا تراجع المسيو ماسينيون عن هذه الفكرة مع انه حمل رايتها زمنا ، ومن جملة المحاولات التي خرجت من المدارس الفرنسية في لبنان ، الكتاب الذي نشرته المطبعة اليسوعية وألفه الأب رفاثل نخله باللغة الفرنسية مع كتابة النصوص العربية بالحرروف اللاتينية وغايته وضع قواعد ثابتة للهجة العامية في لبنان .

وكذلك الكتاب الذي أخرجه المطبعة اليسوعية أيضا من تأليف الأب لاي اليسوعي وسماه التحفة العامية في قصة فنيانوس وهي رواية باللغة العامية وتمثل ناحية هامة من حياة اللبنانيين (I)

ولقد أثار هنري بيريس وضع الادب الشعبي العربي ودعا أيضا الى الاستعاضة بالعامية عن الفصحى وكان الدكتور هيكل في مقدمة الذين تأثروا أول عهده بهذه الدعوة فدعا الى كتابة القصص والتمثيلات باللغة العامية ومن سوء الحظ أن قللة تشجيع الحكومات للتمثيل والسينما وعدم الاهتمام بتوجيهها الوجهة الصحيحة حمل القائمين عليهما أن ينزلوا الى مستوى الرجل العادي فيكتبوا له بالعامية ويستعملوا كل ما يمكن من تملق للفرائز وللأهواء . حتى أدى الامر الى اعتقاد الكثيرين من اخواننا العرب بأن الشعب لا يفهم الفصحى او لا يتنوق مفازيها او انها هي غير صالحة للاعراب عن النكتة المقبولة والفكرة الشعبية المطلوبة . والسواقع أن القضية قضية اتقان وابداع في الفن ، فقد شاهدنا عدة

أكثر من كل كلمة او أسلوب آخر ، وهذا مما يجعل اخواننا العرب لا يقدرون الترسل المغربي أو الاستعمال المغربي لبعض الكلمات او الجمل ، بينما نجد نحن غرابة في بعض أساليب أو كلمات الكتاب اللبنانيين ونفاضل بينهم وبين الشاميين أو المصريين على قدر ما يقتربون منا أو يبتعدون ، وقد وصل الامر الى حد أن مؤلف الروائع حكم على المغاربة بالمجعة مطلقا لأنه لم يستطع ان يعمل المغايرة التي في أسلوب ابن خلدون لاسلوب السيد الفاضل ، مع أن الفيلسوف المغربي يرجع الفضل في توجيه الانشاء العربي هذه الوجهة التي تلقفها المحدثون وحسنوها ، ولولاه لبقيت العربية غارقة في طرائف السجع المتكلف والتراكيب انجفأ . التي يصدق عليها تعبير المعرى : أسمع جمعة ولا أرى طعنا .

وقد انصف الاستاذ الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة) حين قال وهو يعرض التطور الذي أصاب العربية : وآثر النابغون من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة الطريقة الخلونية على الطريقة الفاضلية لجريانها مع الطبع وملاءمتها لروح العصر ومشابقتها لاساليب الغرب فظهرت مهيبة عذبة فيما كتب قاسم أمين وفتحى زغلول ولطفى السيد ومن جرى مجراهم الخ .

وكما ان للعامية نفوذا على الفكر اللغوي العربي فلها نفوذ على النطق أيضا حيث نجد اخواننا المصريين ينطقون الجيم جيما معقودة بينما صحراء المغرب وصعيد مصر ينطق القاف معقودة . وإذا كانت هذه تتفق مع استعمال بعض العرب الذين قال شاعرهم :

حج الحجيج وناقى معقولة يارب يامولاي فك عفاها
فان الجيم المعقودة عامية محض ، كما أن من العامية نطق القاف آفا وعدم التفرقة بين الشين والسين ، او الجيم والزاي .

ومن الملاحظ أن هذه العثرات في العامية تتطور وتنتقل من حرف الى آخر .

فقد كان المعروف في فاس هو الخلط بين السين

(1) كتاب التبشير والاستعمار ص 221 تأليف مصطفى الخالدي وعمر فروخ .

الكونغرو والجابون ، حيث يقيمون حفلات شعبية باللهجات المحلية للغاية منها نشر الروح الكاثوليكية في عادات وحياة السود .

على أن هذه الدعوة لم تجد قبولا من الشيوعيين أنفسهم فقد احتج الصينيون ضدا عليها بالصيغة الآتية : (إن حجج الذين يدعون لاستعمال اللهجات هي ما يأتي : حيث أننا نكتب حوادث لفظة ما ، ويستعمل الناس فيها نوعا من القول ، فيلزم من ذلك أن لن تكون له قوة التعبير إلا إذا كتبت وأمكنها الأعراب عن الاحساس بالحقيقة ، وقد كتب لاوشو أمن المجاز ؟ إن أحدا لا يفهم ، وإذا لم يفهم أحد فهل يمكن الحديث عن المجاز . إن الاختيار أو اللعب بأخذ العالم يحكم بالنقص من قيمته لأنه يلزم العرب أن يخلقوا أدبا جهويا ، (3)

ويقول مؤلفا كتاب (التبشير والاستعمار) (4) ما يلي:

« وبعد أن قامت فكرة (الكتابة في العامية بالحرف اللاتيني ، رجعت من جديد وتحت ستار «تسهيل اللغة» إلى الاستيقاظ ، وآخر ما ظهر في هذا الباب (تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد) تأليف الدكتور أنيس فريجة ولكن يبدو أن الدكتور أنيس فريجة يريد أمرا آخر ، يريد أن يجعل من اللغة العربية الفصحى والحرف العربي مشكلتين يستحيل حلها ، ولذلك هو يرى أن ينتقل العرب إلى الكتابة العامية بالحرف اللاتيني ، أنه يبسط رأيه هذا على منحني كبير وشيء من التهكم كان يجب أن يترفع عنه من يدعو إلى أساس منطقي جديد : أنه يقول :

« يطالب مثلا بعض متبنّي الحرف اللاتيني تسهيلات لقراءة وتخفيفا لنفقات الطباعة ، ونحن من المومنين بهذه النظرية ، ولا نرى خلا للكتابة إلا بتبني الحرف اللاتيني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ... وأما الذين لا يرون مشكلة في الأمر ، وهم من لم يمارسوا التعليم فيقولون : هؤلاء جماعة خارجون على العروبة وعلى الإسلام ، ويطالب بعض الناس بتيسير قواعد العربية لتقرب من العامية أو لرفع العامية لتقرب من الفصحى فيتساءل البعض الآخر وهل العربية معقدة لتبسطها أو

روايات مما كتبه رجال الطليعة كنقيب حداد ومطران وزيدان ومصطفى كامل وعبد الله نديم باللغة الفصحى تمثل في بلادنا وفي الشرق فيقبل عليها جمهورنا أكثر مما يقبل اليوم على القصص العامية على الرغم مما في هذه من تهريج وتلق للفرائز .

وقد دعا الأب نخلة اللبناني إلى ما اختار تسميته بالادب الشفوي أي غير المكتوب ويعني به أدب العامية . وعوضا عن أن ينبه إلى مجرد الاهتمام باستخلاص الروح الشعبية من أمثال العامية وأغانيتها ونكاتها التلقائية فقد أحب أن يسميه أدبا مع أن الادب لا تكفى فيه التلقائية بل لا بد من الفكر والمعرفة وهو ما يخرج عن نطاق العامة والعامية .

ويلاحظ فانسان مونطى ، أن المناقشة بين أنصار العامية والفصحى قد انبعثت من جديد على أثر مجهود الديموقراطيات الشعبية لرفع مستوى الفولكلور وما أحدثته من تأثير على شاطئ النيل إذ أصبح من بين الكتاب اليساريين أنصار الادب العامي ويقول مونطى : إن للمسلمين في روسيا اليوم 17 لغة (وطنية) ليست في الحقيقة إلا تجسيما كتابيا للهجات المتكلم بها ، وقد ألغيت اللغة العربية من الداغستان مع أنها كانت لغته الثقافية حتى سنة 1914 ، وقد أراد ستالين حسب تعبيره الشهير في 18 ماي 1925 تأسيس ثقافة ذات شكل وطني على أن تكون ذات محتوى اشتراكي . (1)

وقد بحث أخيرا سلطانوف مسألة تكييف اللغة القومية في البلاد العربية ولا سيما في مصر سنة 1955 فدعا إلى استعمال العامية في كل ميدان لم تدخله بعد (المقال والخطابة السياسية والماضي) (2)

ودعوة سلطانوف هذه ، أخطر من الدعوات السابقة لأنها لا تريد رفع مستوى العامية للاحتفاظ بها فيها من معان شعبية ، ولكن يراد بها فصل الجمهور عن الفصحى ومحتواها واعطاء العامية محتوى خاصا وجديدا ، وهو أشبه بالإصلاح الذي قام به الإمام الجزولي في المغرب لادخال التصوف والطرقية في صميم الشعب في عصره وهو ما يقوم به فريق من المبشرين المسيحيين في

(2) مونطى ، العربية العصرية ص 78

(2) التبشير والاستعمار ص 223

(1) مونطى ، كتابه عن مسلمي روسيا ص 83

(1) مونطى «العربية العصرية» ص 79

سهلة لتيسرها ؟ انما انتم جماعة خارجون على العروبة وعلى الاسلام .

« ولما ذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لما ذا يتهموننا بالخروج ؟ الامر بسيط لا يدركون ان هنالك مشكلة ، ولما ذا لا يدركون : الامر بسيط الجهل ، الجهل عدو العرب الاكبر . »

وعقب خالدى وفروخ على كلام فريحة ان الدعوة الى العامية والى الحرف اللاتينى معناها :

1 - خلق مشكلة لا حل لمشكلة .

2 - قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم .

3 - تنفيذ لما رُب تبشيرية استعمارية : لأن الامر بدأ بذلك ، ولا يمكن أن يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالأمس .

4 - ان كثيرا من كتاب الدكتور فريحة لا صلة له بتبسيط العربية على الاطلاق ، كجدول ضمائر الاشارة مثلا ، ان الدكتور فريحة يقترح لاسماء الاشارة (ص 33 - 34) عددا اكبر من العدد الذى تثبته كتب النحو المدرسية . ان الدكتور فريحة يريد أن يبرز اشكالا كثيرة لضمائر الاشارة كما يسميها هو لكى يحسم مشاكل اللغة العربية الفصحى ومشاكل الكتابة بالحرف العربى توصلا الى الدفاع عن رأيه فى اتخاذ العامية لغة كتابة واحلال الحرف اللاتينى محل الحرف العربى فى الكتابة العربية . (2)

ومن الذين ردوا على هذه الدعاية التبشيرية طه حسين فقال :

« أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شئ خطير ما أرى انهم قد فكروا فيه فاحسنوا التفكير ، وهو أن العالم العربى الآن وكثيرا من أهل العالم الشرقى كله يفهم العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه ، وللتواصل الصحيح اللغوى بين أقطاره المتباعدة ، فلنحذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضى بكل قطر فى

لهجته ، وتمضى هذه اللهجات فى التباعد والتبادر ، ويأتى يوم يحتاج فيه المصرى الى أن يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ويحتاج أهل سورية ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم ، كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر ايها خير أن تكون للعالم العربى كلمة واحدة وهى اللغة الفصحى يفهمها أهل مراکش كما يفهمها أهل العراق ، أم تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التى تأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض ، كما يترجم بعض الاوربيين عن بعض ، أما انا فأؤثر وحدة اللغة ، واثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الامر وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليفة بأن يجاهد فى سبيلها المؤمنون بها وبأن يضحوا فى سبيلها بكل ما يملكون . (3)

ولنسأل انفسنا نحن مع طه ، لو لم يكن انتاج العرب فى المشرق فى الحقبة الاخيرة حيث كنا لا نزال تحت ضغط الاستعمار الذى يمنعا من كل حرية فى النشر وفى الحركة ، ما ذا كان سيصبح عليه مصير اتجاهنا ؟ ماذا سيصير لو تركنا الثقافة الاسبانية أو الفرنسية وحدها ؟

واذن فالمعركة قائمة مع الذين يشايعون المستعمرين فى الدعوة الى التخلي عن الفصحى واستعمال اللغة الاقليمية العامية ، واذا كان سببها الاصيل هو ما يرمى اليه المستعمر من تفرقة وفصل بين العرب وبين تراثهم فان الذين انتحلوا رأيه من العرب لم يأخذوه عن خيانة أو رغبة فى خدمة الاجنبى ، كلا بل هنالك أسباب أخرى فى مقدمتها الحمية التى جعلتهم يباسون من لغتهم ويعتقدون أنه لا سبيل الى التقدم الا عن طريق اطراحها وخلق لغة جديدة لا نسب لها ، ثم التقليد الاعمى لكل ما وقع عليه التطور فى الغرب ، فهناك اللاتينية التى كانت لغة المجموعة الاوربية الغربية بما فيها انكلترا قد

(1) تبسيط قواعد العربية ص 77 .

(2) التبشير والاستعمار ص 224 .

(3) طه حسين مجلة الحصاد عدد 1 ص 26 .

حياتهم الخاصة . وحينما وقع تدوين اللغة الوطنية اقتصر عليها كلفة رسمية ولم يسمح لواحدة من اللهجات الاخرى بالتدوين ولا اذن للاقاليم حتى باصدار جريدة بلفتهم الخاصة . بل انهم محوا ما كان مكتوبا بلغة الباسك تعصبا منهم للغة القومية وحفاظة على كيانها .

واللغة الفرنسية نفسها على الرغم من كونها أصبحت قومية ورسمية في كل فرنسا لم تسلم من وجود الفرق بين لغة الكلام الذي يتحدث به عامة الشعب وبين لغة الادب والكتابة ، وذلك مظهر عام لكل اللغات تقريبا . وقد بين بلوموفيلد ان لكل لغة ثلاث مستويات عال ومتوسط وشعبي . (I)

ويقول كمال الحاج (2) : « ومن هنا تنبه الكثيرون من علماء اللغة المتبصرين في أمور الفلسفة أيضا الى هذه الازدواجية في نفس الانسان ، الامر الذي يحتم على كل لغة بشرية ثنائية العامية والفصحى ، لا شك في أن هذه الثنائية على درجات ولكنها كائنة في لغات البشر كلهم ، لذا يقول مندريس ما يلي :

ينحصر الفرق الاساسي بين اللغة العاطفية واللغة المنطقية ، في تكوين الجملة ، هذا الفرق يبين تماما عندما تقارن اللغة المكتوبة باللغة المحكية هاتان اللغتان المكتوبة والمحكية ، تباعدان في الفرنسية احداها عن الاخرى ، الى حد ان الفرنسيين لا يتكلمون اطلاقا كما يكتبون ، ولا يكتبون كما يتكلمون ، الا نادرا لكل حالة اختلاف في ترتيب الكلمات الى جانب اختلاف المفردات ، ان الترتيب المنطقي الذي تسلك فيه كلمات الجملة المكتوبة يعطل دائما في الجملة المحكية قليلا أو كثيرا ، فمن اللغة المكتوبة مثل هذه الجملة :

Il faut venir vite, quant à moi je n'ai pas le temps de penser à cette affaire.
Cette mère déteste son enfant.

تتخذ هذه الجملة معظم الاحايين - في اللغة المحكية صيغة مختلفة كل الاختلاف فيقال :

Venez vite. Du temps, voyons est-ce que j'en ai, moi, pour penser à cette affaire-là. Son enfant ! mais elle le déteste, cette mère (1)

وينقل جوستاف لوبون من كلام بركهارد ما يلي :
« وتجد اختلافا كبيرا ، لا ريب في لهجات اللغة

أصبحت مصدرا تاريخيا للغات الحية الراقية في الغرب كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية ، بينما لم تكن هذه الا وحدات من لهجات وجدها العرب يوم فتحوا اسبانيا وبلاد الغال ، وقد تقلبت في فرنسا مثلا لغة جزيرة فرنسا وهي المنطقة التي فيها باريز .

ولكنهم حين يقارنون بين العرب وبين اوروبا في عهدهما اللاتيني ، وبين عهد هذا اليوم والعهد الذي يريسدونه لبلادنا غدا ، انهم حين يفعلون ذلك لا يتعمقون في دراسة الواقع في بلاد اوروبية نفسها ، فهل استطاعت قومية اللغة او اللغة القومية الخاصة ان تمنع من قيام لهجات اقليمية تفرض عليها اللغة الوطنية فرضا يحكم مراد الدستور ؟ هذه واحدة والثانية هل سلمت اللغة الوطنية نفسها في كل البلاد من وجود عامية تقل او تكثر الفوارق بينها وبين الوطنية اي الفصحى بحسب البلاد والمجتمعات ، وهذه ثانية واما الثالثة فهن هل استغنت اوروبا في مرحلتها الحاضرة عن لغة موحدة بين دولها ؟ وهل لم تشعر اليوم بخسارة التجربة التي قامت بها في عهود الوطنية الضيقة ؟

فاذا نظرنا الى فرنسا نجد ان بها عدة لغات اقليمية لم يستطع اختيار اللغة الوطنية أن يقضى عليها ، فثم لغة الباسك التي يتكلم بها قبائل الواسكون القاطنون في البلاد من أقدم العصور وهم الذين سمو اسبانيا بفسكونية ، وهذه القبائل يقطن عشرات الآلاف منها فرنسا ونحو المليون ما يزال في شمال اسبانيا ، وهناك اللغة البروفنسالية وبها عدة لهجات (باتو) وهي لسان سكان القرى في العمالات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا ، واللغة البروطانية وهي بقية من لغة السلت ويتكلم بها أزيد من مليوني فرنسي غربي فرنسا .

وثمة لغة الفلامند ويتكلم بها مئات الآلاف من سكان الشمال ، ومثل ذلك يقال عن اسبانيا والبرتغال وجل أقطار العالم . ويصل الفرق في هذه البلاد الى حد أن سكان القرى البعيدة لا تستطيع ان تفهم اللغة الوطنية التي يتكلم بها الباريسيون وعامة الفرنسيين الا بحكم الدراسة والتعليم . اذ اللغة الأم بالنسبة اليهم هي اللغة المحلية التي تخاطبهم بها أمهاتهم ويسمعونها في

الان سبباً في نجاح وحدتهم وعاملاً قسواً في اثبات
كيانهم .

ولقد حاول بعض الاجتماعيين ومن بينهم هانوتو أن
يؤكدوا عدم حاجة المجموعة البشرية الى لغة واحدة لكي
تتحد ، معطياً الاتحاد السويسري كدليل على ذلك .
واذا كان هذا صحيحاً من الناحية القانونية ، فإن
المعنويات تظل مفككة . والاتحاد السويسري لو أنه
أصيب بأزمة خارجة عنه ، وزالت عنه الحماية الدولية
التي تقضى بها المحافظة على التوازن بين دول الغرب
الكبرى ، لو وقع ذلك وعملت كل دولة مجاورة لاحدى
الوحدات السويسرية على جرحها اليها لما وجدت صعوبة
في أن تندمج تلك الوحدة مع البلاد التي ترتبط وياها
برباط اللغة والدين . ولقد وقعت على اثر مأساة
الكونغو رجة في بلجيكا عرضت وحدتها للافتراق ،
اذ تكونت في كل من الووني والفلامنك حركة محلية
هددت بتكوين حكم ذاتي خاص .

فاللغة اذن شيء ضروري كعامل ربط وتوحيد بين
العناصر التي تتكون منها الامة او الاسم التي يتكون
منها الاتحاد ، وذلك ما عناه جوليان باندا في مقال
عن الروح الاوربية اذ يقول :

اذا كنا نعمل على أن نزود الغرب بوحدة روحية ،
علينا أن نجند الحملات في سبيل انشاء لغة غربية ،
اعني لغة تضاف الى لغات مختلف القرميات الغربية ،
بدون أن تحدث التخريب في هذه اللغات ، يكون مثلها
مثل الفرنسية التي أضيفت الى البيكاردية والبروفنسالية
... ومثل الانكليزية التي أضيفت الى الغالية
والايكوسية ، هذه اللغة يتلقنها الاولاد جنباً الى جنب
مع لغة بلادهم . مثلهم مثل اولاد عائلات مثققات كثيرة
في الغرب ، يتعلمون الفرنسية لمدة طويلة بالاضافة الى
لغتهم القومية . (I) وهكذا نرى أن اوروبا التي يريد
القوم أن يقتفوا اثر افتراقها ويطالبوا بأن تكون العربية
لاتينية والعنابية لغة كل اقليم من أقاليمهم ،
رجعت الى نفسها تبحث عن وسيلة تنقذها من الفرقة
وتجمع شملها فلم يتم لها ذلك بغير البحث عن لغة

العربية العامة اكثر مما في اية لغة أخرى على مايحتمل،
ولكن لا يصعب عليك ان تفهمها جميعها اذا ما تعلمت
احداها ، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التي يتكلم
أهلها بها وهي الواقعة بين مدينة الصويرة ومدينة
مسقط . وقد يكون لاختلاف طبيعة البلدان تأثير في
اختلاف تلك اللهجات التي هي عذبة في أودية مصر
والعراق الدنيا ، وجافة في بلاد البربر وسورية واعظم
فروق كما أعلم . هو ما بين لهجة المغاربة في مسراكش
ولهجة الاعراب في مكة والحجاز ، ولكن هذا الفرق بين
تينك اللهجتين لا يزيد على اختلاف لهجة فلاحى سواب
(جنوب المانيا) عن لهجة فلاحى سكسونية (شمال
المانيا) . (2)

وقد بين فيرميل ان اللغة الباريسية تقترب فيها
لغة القول من لغة الكتابة الى حد لا يمكن معه ادعاء
الازدواج مثل ما هو في اللغات الاخرى .

واذن فليس من الضروري أن يكون هنالك ازدواج
بكل معنى الكلمة ، كما ان وجوده لا يستدعي اهمال
اللغة الفصحى واحلال العامة محلها ، لان هذه لو حلت
محله لاستدعت في الغالب تكوين لغة عامية فصحى
وأخرى عامية .

على أننا اذا نظرنا في الاغاني الشعبية وخاصة في
الزجل نجد نوع افتراق بين لغة النظم وبين الكلام
العادي الذي يتخاطب به الناس . الامر الذي يبين أن
العقل متى تدخل في القول جرده ووصفه وخرج به عن
لغة الكلام المعتاد .

وفيما يخص المسألة الثالثة ، نجد اوروبا الان بعد أن
قطعت مرحلة الوطنية الضيقة تشعر بحاجة الى اعادة
الوحدة الاوربية لما كانت عليه في الماضي ، وهي تبحث
فيما تبحث مسألة تكوين لغة موحدة يتعلمها الابناء
الاوربيون بجانب لغتهم القومية حتى يمكن التخاطب
بها بين أبناء أوروبا جميعاً ، وذلك ما قام به الروسيون
في الاتحاد السوفياتي حيث جعلوا لغتهم الموحدة
لمختلف القوميات السوفياتية . ولو انهم كانوا يحتفظوا
باللاتينية كما كانت عليه قبل عهد القوميات لوجدوها

(1) فانديرير - اللسان ص 171.

(2) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ترجمة زعتر ص 532 . ونقل ذلك كله الحاج ص 239 من فلسفة اللغة ،

ولكن التجربة الاستعمارية أكثر من ذلك ، اذ انها أدت الى انحطاط العربية والاكتفاء باللسان الاجنبى حتى وجد مثل الشرايبي الذى كان يطالب بمخاطبة الشعب بالفرنسية فى المغرب وعديد من اللبنانيين الذين آثروا الكتابة بالفرنسية او الانكليزية غير عابئين بمن ينتقدهم من أبناء وطنهم . ومثل محمد عكون الذى يطالب فى اثنا الكفاح القومى فى الجزائر بثلاثية لغوية فى الشمال الافريقى ، العربية والفرنسية واللاتينية ويأسى لتاريخنا الثقافى بزعمه . (2)

تقهقر اللغة العربية ازاء لغة المستعمرين شىء طبعى ما دام كل وجوه النشاط الانسانى مقصورا على اللغة الاجنبية وما دامت العربية تعامل معاملة الايتام فى مائدة اللثام ، وذلك ما اعترف به وليام مرسى فى هذه الفقرة التى نقلها عنه مونطى فى كتاب العربية العصرية .
والتي يعبر بها عما يشعر به من حال المغرب العربى :
انه ليس عمليا ولا منطقيا وقليل ما يقع ، أن يبقى لسانا تعبير عن حضارة متعاشين وقتا طويلا فى بلد واحد ، فاذا كان المتزاحمان يملكان حرمة واحدة ويعبران عن شىء واحد بصفة محسوسة ، ويعرب عنه جيدا الواحد والآخر ، فقد تساعد أسباب عاطفية على اطالة تضييع هذه القوى . أما اذا كانت احدى اللغتين لسان الحاكمين ، وهو الذى يفتح الباب للدخول الى حظيرة حضارة عصرية كبرى ، فمن الواضح أن تقترب التعبيرات المكتوبة مع التعبيرات المحكية للفكر الى أقصى ما يمكن ، بينما يبقى الآخر لغة المحكومين يعبر فى وسط كتابة عن مثالية من العصور الوسطى ، ويختلف حين يكتب عنه حين يعبر . فان وضع اللغتين يصبح حينئذ غير متساو . فيستطيع الاول ان يرجع الثانى القهقرى) ويبين على ذلك « جان ليسرف » ان تقهقر العربية ازاء لغة أو أكثر من اللغات الاجنبية يعنى تقهقر الفكرة الوطنية ، وفكرة الوطن العربى تمثل بدون شك فكرة القوة بل أقول فكرة شديدة ، وترتب على ذلك أيضا تقهقر بالنسبة الى التقدم العصرى للجماعة ، فيكون ذلك حلا ارمستوقراطيا بكل معنى الكلمة لان اللغات الاجنبية من

الربط التى تصل بين وحداتها وتكون هى غابتها . لا ادري كيف يفكر بعض العرب بعد ما شاهدوا هذه التجارب الاجنبية بالتخلي عن الفصحى وتكوين اللغة الاقليمية الخاصة ؟ مع أن المجهود الذى نبذله لتعميم الفصحى وتوحيد التعليم بها أقل بكثير مما يتطلبه خلق لغة جديدة من ألفها الى يائها ، ان كل ما يتطلبه مناسا الحال ، هو اصلاح فى الاساليب وعدم شغل أطفالنا باللغة الاجنبية قبل أن يكتمل وعيهم بلغة الام .

ثنائية اللغة

وهذا ما يدور بنا عودا على بدء . للحديث عن ثنائية اللغة ، أو على التحقيق عن العناية التى توليها فى كل مراحل تعليمنا للغة الاجنبية . ولست فى حاجة الى تكرير ما قلته فى صدر هذه المحاضرة من ضرورة احتكار أوقات فى التعليم الابتدائى للغة العربية ، وإعطاء القسط المعقول للغة أو أكثر من اللغات الاجنبية فى التعليم الثانوى أو العالى ، مثلما هو الواقع فى جميع البلدان الاجنبية . وان من يتجول فى الدول الراقية مثل انكلترا او امريكا وروسيا واسبانيا يشعر تماما بأن الاغلبية الساحقة فى هذه الامم لا تفكر فى اقتان غير اللغة الام ولا تشغل نفسها بغيرها ، بل انها جميعا تفرض عليك أنت الذى تقدم لبلادها أن تخاطبها بلغتها ، أما نحن فاننا بعكس ذلك نعتبر ضعفا فى ثقافتنا وفى وجودنا أن لا نعرف لغة المحتلين لنا . لقد عمل الاجنبى لذلك مدة طويلة اذ كان يقصر كل الوظائف على من يتقن هذه اللغة . أما اليوم فمن الخذلان أن نظل حيث وضعنا الاجنبى .

لقد لاحظ أحد خبراء التعليم اللبنانى السيد قيصر نصر ان ثنائية اللغة تكون عند الطفل انحطاطا نفسيا . ويقول مونطى : الواقع ان المجهود الذى يطلبه اللسان الثانى ينقص جدا من استعداد الطفل العقلى الذى كان يجب أن يقصر على دراسة اللسان الاول . ويقول لوريه أحد علماء النفس الفرنسيين (ان نمو الطفل العقلى لا يتضاعف ، ولكن ينزل الى النصف ، وبما أنه غير قادر على التفرقة بين اللغتين ، يحفظ الاثنين دون أن يتحلى بعبقورية لغته الخاصة .

(1) تعريب كمال الحاج .

(2) أنظر جريدة العمل التونسى بالفرنسية الصادرة فى 6 يناير 1958 .

المستغرات (لو كس) السنى لا يستطيع الجمهور أن يؤدي تمها ، (3) تلك شهادات قيمة من شخصيات فرنسية ذات تجربة استعمارية خطيرة .

أما تجربتنا نحن فهي أخطر من هذا . انها ضعف في المقدرة القومية على الانتاج مطلقا . ان من ينظر الى حالة الثقافة في المغرب العربي يشعر بمقدار النقص الذي يعانيه حملة الشهادات العليا في وطننا . فاذا استثنينا قلة يسيرة من الذين يكتبون ويؤلفون بالفرنسية او الاسبانية وعددهم في تونس والجزائر والمغرب يعد على الاضايح ، وانتاجهم لا يتجاوز طور المحاولات التي يشجعها الاستعمار ويفخر بها ، اذا استثنينا اولئك ما ذا نجد ؟ فراغا كاملا في الانتاج . مع أن عدد المثقفين الحاملين للشهادات العالية من أرقى الجامعات في فرنسا وغيرها يعد بالآلاف ، فلو قارناهم بمثل عددهم من أبناء فرنسا ، لوجدنا الآخرين أكثر انتاجا وأقوى تفوقا في ميادين العمل والتنظيم . ولو قارناهم بمن هم مثلهم في درجة الشهادات من اخواننا في مصر مثلاً ولكنهم درسوا في الابتدائي والثانوي على الأقل باللغة العربية لوجدنا هؤلاء ينتجون أكثر من الأولين . هذه حقيقة مرة نلسمها في مجتمعنا ، ولا يمكن أن نغفلها بعملة غير كون الانسان لا يستطيع أن يملك زمام اللغة الاجنبية الى الدرجة التي تملك عليه أفكاره وقلبه وحتى عقله الباطن . وهو يعيش في بيئة أخرى غير بيئة تلك اللغة ويحلم بأمال وأمثلة عليا غير التي تقدمها له تلك اللغة .

ان اللغة ليست وسيلة من وسائل التعبير ، ولكنها غاية .

لأن الكلمة ، هي مصدر الالهام ، وهي اذا لم تخرج معتزجة بالروح التي تصنعها فلن تكون الكلمة لا محتوى لها وصدى لطبل أجوف يرن في الفضاء ثم يغيب في العدم المحض الذي ليس له ثبات .

واللغة الاجنبية تأخذ الانسان ، ولكنها لا تستطيع أن تعطيه نفسها فهو يظل مأسورا بيد من لا يرغب فيه ولا يمتزج بوجوده . انه يظل في عالم المقعدين الذين يأنسون من أنفسهم القوة على النهوض فلا تعينهم الآلة .

لا يجدون الآلة التي هي لغتهم الاصلية ، ولا تقوم الآلة العوض الا بما تقوم الابلج الصناعية في النهوض بذات المشلول .

اننا سنظل بدون ثقافة ما دمنا لا نتعلم ونتتقن باللغة الام .

ومع العربية منصبح المثقفين المنتجين كما كان أجدادنا الاولون .

نقد وسعت العربية كل هذه الكتب التي تمتلئ بها خزائن الشرق والغرب ولقد كان المغاربة في مقدمة المؤلفين والكتابيين . يوم لم تكن لغة درس وعلم غير لغة المضاد .

أما اليوم فاننا ذلك المجتمع غير المنتج ، لاننا مستعجمون وعواطفنا عربية .

العلاج

ونعود الى السؤال ما هو العلاج اذن ؟

لا شك أنه قبل كل شيء في المحافظة على الفصحى ، ولكن ما هي الفصحى عند التدقيق ؟ يقول البعض ان الفصاحة لا تعني الكلمة واصلا وتطورات استعمالها ، وانما تعني الجملة وموقعها من الاعراب الى حال أو آخر الكلم . يقول كمال الحاج :

« وعلى ضوء هذا التعريب للفصحى المبني على النحو ... أي الاعراب ... تصبح كل كلمة قابلة لان تصير فصيحة بشرط ان ندخل في جملة مفيدة ، هي عامية اذا استعملت في ترتيب يقوم على الكلمة ، وهي فصيحة اذا استعملت في ترتيب يقوم على الجملة وارتبطت بسابقات لها ولاحقات بحيث تنشأ الوحدة الاعرابية او النحوية .. ان كلمة «صباح» في خاص ميناها ليست عامية ولا فصحي ، هي عامية في «الصباح عالنار» وهي فصحي في «الصباح على النار» (4) ويقول بعد ذلك : لنفرض أن هذه المقاييس النحوية قد الغيت من لغة العرب أتستطيع أن تتصور ممكنا بعد ذلك حدوث فهم للكلمات ؟ اللغة ليست حروفا بمعزل عن الالفاظ ولا الالفاظ بمعزل عن الجمل ، ولا جملا بمعزل عن البيان . اللغة هي كل هذا دفعة .. فاذا قضينا على الروابط وعلى العوامل أي على المقاييس النحوية .. ما ذا سيبقى من

(4) كمال الحاج ، فلسفة اللغة ص 236 .

(3) مونظي ، العربية العصرية ص 87 .

اللغة ؟ لا شيء ، ندور اذ ذاك فى ظلام بهيم . يقول الامام عبد القادر الجرجاني بصدد النحو ما يلى :
ان الالفاظ مغلقة على معانيها ، حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها ، وان الاغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرج لها . وانه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام وزججانه . حتى يعرض ، وامتياض الذى لا يعرف صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غائط فى الحقائق نفسه .
واذا كان الامر كذلك فليت شعري ما عذر من تهاون به ، وزهد فيه ، ولم ير ان يستسقيه من مصبه ويأخذه من معدنه ؟ (I)

وعلى هذا فالنحو وحده هو اللغة . أما الكلمات فشيء ثانوى ، يمكن أن تكون عرفية من حيثما كانت اذا وضعت فى جملة نحوية سليمة . اننا لا نوافق على هذا الادعاء ، لاننا لو أخذنا أية كلمة عامية ووضعناها فى وسط الجملة العربية دون أن تتوفر لديها صيغتها العربية ، اى دون أن تكون أصيلة او مندرجة تحت أصل من أصول التعريب التى لا بد من مراعاتها فى اقتباس الكلمات وانتحالها ، لن تكون الجملة نفسها التى فيها هذه الكلمة عربية ولو كان فيها نحو واعراب .

لقد أخذ بعض الظرفاء من أصحابنا نفسه بالاستهزاء ببعض الذين لا يبالون بالكلمات الصحيحة فى استعمالهم من غيرها ونظم بيتا غزليا قال فيه :

«زدمتم ، على قلبى (بسباط) هجركم
فكاد من «الفقصة» أن «يتطرق»

فهل ستصبح «زدمتم» العامية فصحي بمجرد اعرابها والنطق بها (زدمتم) ؟ وكذلك «السباط» ما دام لم يقبل من اول الامر فى اللغة . وكلمة «الفقصة» أى الحزن ، والتطرق ، اى الانفلاق هل تدخل هى نفسها بمجرد هذا التركيب فى المعجم العربى ؟ الواقع ان الكلمة هى الاصل فى اللغة فى البدء كانت الكلمة ومنها جاءت الجملة ، ووقع الاصلاح ليبقى الكلام على وثيرة واحدة ، فكان النحو .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان فى لغات العرب القديمة من لا يعرب ومن يختلف فى تراكيبه وقواعده عن اللغة المضرية التى قسدر لها البقاء . وقد امتازت اللغة الحميرية بعدة فوازي منها عدم التزام الاعراب دائما ، وقد حفظ لنا هذا المركب الحميرى : (ليس من أمبر أمصيام فى أمسفر) (ليس من البر الصيام فى السفير) ومع ذلك اعتبرت الحميرية من اللهجات العربية الفصحى وان لم تكن من المضرية . وليس من السهل معرفة كامل الفوازي التى بين الحميرية والمضرية وفى ذلك يقول ابن خلدون فى المقدمة : (ولقد كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بمثابة ما هو اللسان المضرى مع لغة العرب لهذا العهد - وهى التى بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد - وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته وتشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها ، كما يزعم بعضهم فى اشتقاق الفيل فى اللسان الحميرى انه من الفول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح ، ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هى لغة العرب لعهدنا مع مضر ، الا ان العناية بلسان مضر من أجل الشريعة اى القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء ، ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعمناض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمر أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها . ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الاول فى لغة مضر ، هـ

فهل كان ابن خلدون يريد الاستعاضة عن الفصحى بالعامية ؟ كلا . وانما كان يريد العناية بالعامية واستقراء حالها فربما يكتشف فيها من قواعد العربية ما لا يفرض الاعراب على طريقة مضر ، وما يتفق مع اللهجات العربية الأخرى . وطبعاً فان ابن خلدون لا يقبل هذا الا وهو يعطى الاممية الاولى للكلمات العربية

(I) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص 26 ، القاهرة 1331 هـ .

الصحيحة ، التي يجب النطق بها كما كان العرب الاولون ينطقون ، ولا بأس من التسامح فى الوقف على أواخر الكلمة ، أو الإبقاء على ما يتفق مع استعمال بعض القبائل العربية فى أيام السليقة الأولى ، فبنسب تميم كانوا ينطقون بحرف المضارعة الأول للمتكلم مكسورا فيقولون فى نجتني ، مضارع اجتني ، نجتني بكسر النون الأولى ولن يغير فى فصاحة متكلم بالفصحى أن يتبع طريقة من مثل هذه الطرق العربية .

والامر كما قال الشيخ عبد القادر المغربي : ان احياء اللغة الفصحى بيننا لا يمكن حصوله بمراعاة قواعد النحو فقط ولا بالتزام حركات الاعراب فى أواخر الكلمات التى نتكلم بها فى كلامنا الدارج ، فان هذا ليس بالميسور ولا المستطاع للجمهور وانما المستطاع هو تطهير كلامنا من الكلمات العامية المبتذلة واستعمال كلمات فصيحة مكانها . فان هذا هو المستطاع وكذلك من المستطاع لنا أن ننطق بالكلمات الفصيحة على الشكل الذى كان ينطق به الفصحاء اى دون تحريف أو تحويل فى حركات الكلمة وسكناتها وتشديداتها والحجج بها من قواعد الصرف وقوانين اللغة . (I)

والحل اذن هو فى المحافظة على اللغة الفصحى ، مع العمل على رفع مستوى العامية ليلا يبقى هنالك غير الفارق المعتاد فى اللغات الراقية بين لغة الكتابة والخطابة وبين لغة الحديث العادى .

ويلزم لذلك ، الى جانب المجهودات التى تتخذ لتوسيع الفصحى وتيسير أساليب تعليمها ، القيام

بتنفيذ المقترح الذى وضعه معهد التعريب المغربى ، وهو استقرار المفردات العامية واستخراج ما يتفق مع الفصحى ، وهذا يستوجب عمليتين فرعيتين .

الأولى - تهذيب النطق بالكلمات العامية التى ماتزال محتفظة بشكلها الفصحى فيما لو كتبت ، حتى يصبح استعمالها متفقا مع الاستعمال الفصحى . وهذا موضوع ألف فيه او كتب عنه عديد من القدماء والمحدثين ، كالسيوطى وعلب وابن قتيبة واليازجى وعبد القادر المغربى وغيرهم .

والثانية - رد العامى الى الاصل ، اى البحث عن الكلمات العامية وهل هى عربية انحرفت فترد الى أصلها العربى وتهذب وتشاع وذلك كقولنا ، بابتو أصلها بابتة بمعنى كان من حقه ، وهى عربية فصيحة ، أو هى جارية على أصل الاشتقاق العربى وان لم يسمع استعمالها عند العرب وذلك كالعروبي فى نوع من الشعر الغنائى يستعمل فى مراسلة المتحابين ، وهو نسبة للعروبة اى المرأة حسنة الثفل المحبة لزوجها . او هى كلمة دخيلة ومن اى لغة دخلت ، فينظر فى أمر قبولها معرفة اذا كنا فى حاجة اليها كالتلفون ، أو ترفض ويدعى الى استعمال ما هو عربى مكانها . وذلك كالبيستيون للحصن العسكرى . أو هى من الموضوعات الشعبية لمسميات حديثة فتوتر فى نظرنا على غيرها وذلك كقولهم الحصار فى محل (الدمان) للسيارة ، وهى أفضل من الفرملة والفراميل الجوية مثلا .

علال الفاسى

(I) عبد القادر المغربى ، عثرات اللسان فى اللغة ، ص 6 .